معالي الشيخ محمد العبودي

أُمَّة في رجل

بقلم

أ.د. محمد بن فهد بن عبدالعزيز الفريح

عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد احترتُ فيما سأكتبه عن معالي شيخنا الجليل محمد بن ناصر العبودي رحمه الله عميد المشايخ والرحالين والمؤلفين والكتبيين والمؤرخين والمثقفين، وسبب الحيرة لا قلة المعلومات أو شُحِّ مواردها بل لكثرتها وتواردها وتنوعها، فهو جامع فيه من العلوم ما لذ وطاب، وجامعة مفتوحة الأبواب، كم منتفع به في المشارق والمغارب، وكم من مستفيد منه في الجبال والسهول والهضاب، لفَّ العالم بحثاً عن المسلمين في بلدانهم وغير بلدانهم، أغاث الله به أمماً من الناس دعوة إلى توحيد الله واهتماماً بقضاياهم، ونقلاً لما يراه لولاة أمرنا رحم الله أمواتهم ووفق أحياءهم لكل خير، ذكر رحمه الله أنه قال للملك فيصل رحمه الله لما سأله عن وضع المسلمين: يا طويل العمر، المسلمون في أكثر البلدان يتامى! فتأثر الملك فيصل تأثراً كبيراً.

وهذه عادة حكامنا غفر الله لهم جميعاً في الاعتناء بالمسلمين حقيقة ومعنى.

كان الشيخ محمد العبودي رحمه الله دائم الحديث عن فضل المملكة العربية السعودية على كثير من المسلمين، ودعمها الكبير والكثير والمتتابع بل كان يقول: لولا فضل الله ومنته وما هيئه من دعم ولاة أمرنا لي لم أفعل ما فعلتُ من التطواف بالهجر والقرى والمدن في العالم تفقداً لأحوال المسلمين، وربطهم وترابطهم برابطة الإسلام والسنة.

فلآل سعود جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً أيادٍ بيضاء لا ينكرها إلا جاحد للمعروف لئيم مخذول.

ولا يقال ذلك منَّة على أحد، بل ولاة أمرنا نحسبهم ممن يرجون الله والدار الآخرة فيما يبذلون لإخوانهم المسلمين من أعمال ومساعدات، لكن بعض من قلَّة مروءته، وضعفت ديانته يحسن أن يُذَكَّر بالفضل، لعله أن يعرف الفضل لأهله، ويتجرد عن صفات اللئام.

وَأَظلَمُ أَهلِ الظُلمِ مَن باتَ حاسِداً ... لِمَن باتَ في نَعمائِهِ يَتَقَلَّبُ

لم يكن الشيخ رحمه الله يتجوَّل سياحة ودفعاً للسآمة، ولا بلدانياً ورحالة فقط بل كان داعياً إلى الله يجول في أرضه، قرَّب المسلمين وبلدانهم وثقافاتهم إلى بعض.

كان مهتماً بأهل الحديث اهتماماً يليق بهم، ويعتني بأحوال من استطاع منهم.

فلله دره كم خدمةً قدمها للمسلمين؟!

وكم نفعٍ بذله لطلاب العلم في المشارق والمغارب؟

وكم حفظ الله به من العلوم في شتى الفنون؟

بذل نصحه وصحته خدمة للمسلمين، قام بجهد طيلة عقود تنوء به المنظمات والهيئات، أحسبه والله حسيبه أنه كان مجتهداً لله ومتعبداً لمولاه وكان مباركاً بفضل الله.

مَا زَالَ يحلب هَذَا الدَّهْر أشطره ... يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا

لا مُتْرَفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعَدَه ... ولا إذا عَضَّ مَكْروهٌ بِه خَشَعا

لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يكادُ حشاهُ يَحطمُ الضِّلَعا

لم يتنازل عن مبادئه، ولا قيمه وتدينه، ولا لغته ولسانه، رأى الثقافات المختلفة، وبريق الأفكار واختلط بأهلها في بلدانهم فكان محافظاً على تدينه منفتحاً في تعامله، وهذا توفيق من الله؛ إذ الخلط في ذلك يعود على صاحبه بالاختلال ثم الإخلال فما أكثر من غلا أو تطرَّف أو أفرط أو فرَّط لكن الشيخ رحمه الله يعود إلى مجتمعه ووطنه معتزاً بهما لا ناقماً عليهما ولا محاولاً إفساد فكر أو تحريف منهج بل كان سلفياً على الجادة مستفيداً من التجارب، ناقلاً للخبرات، باذلاً نصحه لأمته، مخبراً عن النِّعم التي نعيشها، والخير الديني والدنيوي الذي نحن فيه.

ألَّف رحمه الله الكتب والكتيبات، وصنع المعاجم، وصاغ كتب الرحلات، وصنف في اليوميات.

فريد في فنونه، عجيب في همته، قارب المائة وسمعته يقول وقد جاوز التسعين: أُمضي ثلاثة عشر ساعة في المكتبة!

ولي قَلَمٌ في أَنْمُلي إِن هَزَزْتُه *** فما ضرَّني أَلاَّ أَهُزَّ المهنَّدا

ما أكثر فضله، وأحسن ذكره، وأطيب سيرته، فيا واسع المغفرة اغفر له.

لا أعرف رجلاً كتب عن البلاد كما كتبه بل ربما تفرَّد في الكتابة عن بلاد لم يُكتب عنها أحد قبله.

كان أول لقاء لي به في مكتبه برابطة العالم الإسلامي في مكة، إذ صحبتُ الشيخ سعد الحصين رحمه الله إليه فلما دخلنا عليه قام مرحباً ومشى إلى الشيخ سعد فتعانقا رحمهما الله ثم سلمت على معاليه مقبلاً رأسه وقد عرَّف بي الشيخ سعد، فلما جلسنا حوله، قال رحمه الله: الشيخ محمد الفريح، فقال: هنيئاً لكم في اسمكم! فالناس تطلب الفرح في حياتها، وقد جعله الله في اسمكم ولكم نصيب منه، فقد أفرحني دخولكم عليَّ، والشيخ سعد دائماً أدعوه للزيارة لكنه لا يستجيب خشية أن يشغلني على قوله، وهو حقيقة يُؤْنَس بمثله، ثم أهدى الشيخُ سعدٌ بعض مهذباته، فقال له الشيخ محمد: أنت سيوطي شقراء! على كثرة اختصاراتك للكتب التي تراها

مهمة، وأرى أن تسميه مختصر كذا أو مختارات من كذا لا أن تسميه مهذباً، فهي ألطف عبارة وتؤدي المقصود، إلا إذا كان فيه أغلاط فهنا يحتاج إلى تهذيب فعلاً، فقال الشيخ سعد: لكني أحذف فقط العبارات التي أراها زائدة ولا أحاول التدخل في اللفظ إلا نادراً.

انقضى المجلس بلطائفه ودرره وجماله وودعنا الشيخ وكان حريصاً على تشييعنا إلى خارج مكتبه فرفض الشيخ سعد رفضاً باتاً.

كانت الساعة تمضي معه سريعاً من لذة مجلسه، وحسن حديثه، وكثرة فوائده، حتى كأنك تتذكر قول الشاعر:

نهار كشبر الذَّرِ أو هو دونه ... وليل كإبهام القطاة قصير

كنتُ آمل أن أجد طريقاً لأهتدي إليه رحمه الله، فكان ذلك اللقاء الأول والوحيد تلك الفترة ثم اتصل بي أحد علمائنا الكبار طالباً توصيل أمانة للشيخ محمد، فقلت: أبشر، وزودني برقمه، فقلت: الحمدلله أن يسر لي معاودة لقياه بعد تقاعده من الوظيفة، فاتصلت

به، فرحَّب وضرب لي موعداً في يوم خميس بعد المغرب، فجلست إليه في مجلسه بين العشاءين جلسة خاصة لا ثالث لنا، فدار الحديث عن العطار وسدير عموماً، وأذكر مما قاله: سدير تراها ليست ديرة ماء، ديرة نخل على وديان، إذا سال الوادي ما على النخل نِشْدة، أما إذا لم يسل فالنخل يموت، وتصفي القلبان"الآبار"، ويهاجر أهله إلى الكويت والعراق والقصيم وما أشبه ذلك، إلا فعمارة سدير قديمة بس هالنوبات التي تجيهم من قِل الماء، ثم قال لي: وش معنى سدير؟ فقلت: تصغير سِدْرٍ، من شجرة السدر، فقال رحمه الله: صديقنا الشيخ عبدالله بن إدريس من سدير، فقلت: معروف، فقال رحمه الله: فيه اثنان عبدالله بن إدريس واحد من سدير والآخر من الوشم، لما كنتُ مدير المعهد العلمي ببريدة جاءنا هذا سنة، وجاءنا هذا بعده سنة، يقول: إن سدير أصلها صدير، تصغير صدر، هكذا يقوله.

وحدثني عن شيخه صالح بن عبدالرحمن السكيتي رحمه الله أنه قال: طرأ علينا أن نذهب وزميل لي يقال له صالح الرسيني -كلاهما طلبة

علم- لنقرأ على آل الشيخ في الرياض لكن ما عندنا قروش ولا عندنا أجرة للجماميل، فكل منا أخذ نعاله وعصا وتمر قليل مليء الكف، وذهبنا عن طريق سدير؛ لأن أهل سدير مشهورين بالضيافة، يقول الشيخ السكيتي: ما قعدنا ليلة بلا عشاء، فقلتُ له:(القائل محمد العبودي): وش يحطون لكم، فقال: على حسب، بعضهم عشاء فاخر "جريش وقرصان"، وبعضهم "دويفة"، فهم يعطونا من عشاهم الذي عندهم، فقلت: لم العصا؟ فقال: لأجل الهوام ونحوها، وكما قال موسى عليه السلام:(ولي فيها مآرب أخرى)، ومنها إذا كانت القايلة نصبناها ووضعنا الغترة عليها نتوقى من الشمس.

قال العبودي: إن شيخي يمدح أهل سدير بالضيافة، ولم ينس ذلك مع مضي العقود عليها.

قَوْمٌ لَهُمْ شَرَفُ الدُّنْيَا وَسُؤدَدُهَا ... صَفو عَلَى النَّاسِ لَمْ يُخْلَطْ بِهِم رَنَقُ

يقول السكيتي رحمه الله: أقمنا واحداً وعشرين يوماً بالطريق مشياً على الأقدام من بريدة إلى الرياض.

تأمل الهمة في طلب العلم، والرحلة فيه، ومعرفة من يقصدون لطلب العلم عنده، وأي طريق يسلكون.

سألته في هذه الجلسة من أحب مشايخكم لكم؟ فقال: الشيخ ابن حميد رحمه الله هو أنفعهم لي، هو الذي له فضل كبير عليَّ، كان يذهب بي إذا طلبه الملك عبدالعزيز رحمه الله؛ لأجل أقرأ عليه.

عِش ألف عام للوفاء وقلَّما ... ساد امرؤ إلّا بحفظ وفائه

وذكر رحمه الله أن الشيخ عبدالله ابن حميد رحمه الله كان يدله من طريق في طريق في الرياض قال الشيخ محمد: حتى وصلنا إلى أحد المنازل لزيارة ساكنيه، فإذا به منزل عمة الملك عبدالعزيز "طرفة بنت فيصل بن تركي" رحمهم الله، يقول الشيخ محمد: ما زلتُ أذكر ترحيبها بالشيخ عبدالله وحفاوتها بزيارته؛ إذ كان الشيخ عبدالله قد أمَّ بها فترة من الفترات قبل توليه القضاء.

على ذكر القضاء، قال الشيخ رحمه الله: الذي يفرح بتركه للقضاء لأجل الذمة وخوف الأمانة قليل، ثم ذكر ما جرى لأحد القضاة عُزِل ووُلِّي غيره، فالمعزول يقول: استرحنا، والمولَّى يقول : أُجبرنا، ثم ذكر قول العُصْفُرِي الشاعر:

عندي حديثٌ ظريفٌ ... بِمِثْلِهِ يُتَغَنَّى

من قاضيين يُعَزَّى ... هذا وهذا يُهَنَّا

هذا يَقُولُ: أَكْرَهُونا ... وذا يَقُولُ: اسْتَرَحْنَا

ويكذِبان جميعًا... ومَن يُصَدَّقُ مِنّا

قدمتُ لمعاليه رحمه الله جملة من المؤلفات التي كتبتها بين يديه فقام يستعرضها واحداً تلو آخر وهو يقرأ كل مؤلَّف ثم يعلق عليه، وأذكر لما قرأ عنوان(الإمتاع في حكم الغناء والمعازف والإيقاع) قال: ما أحسنه وأنفعه لو أطاعك الناس!

ولما وصل إلى رسالتي الدكتوراه "وهي تحقيق جزء من التعليق الكبير لأبي يعلى رحمه الله" فرح بها جداً وقال: هذه أحسن هدية، وقال: قد قرأتُ بعض كتب أبي يعلى على شيخنا ابن حميد رحمه الله، واهتممتُ باختياراته، ومدرسته الفقهية، فكتابكم هذا قد أرجعني بالذاكرة لتلك الأيام قبل ستين سنة، فلابد أن أكتب عنه مقالاً.

وقد كتب رحمه الله بعد مدة من اللقاء مقالاً عن الجزء المحقق من الكتاب، ضمَّنه جملة من ذكرياته في ذلك الزمان، نُشِرَ في صحيفة الجزيرة يوم الأربعاء ١٤٣٧/١١/١٤هـ.

والشيخ محمد العبودي رحمه الله له اهتمام كبير بالمذهب الحنبلي فقد نسخ ذيل الطبقات لابن رجب بيده عام ١٣٦٤هـ، ونسخ عدداً من المخطوطات، وقال: كنا نقرأ على بعض مشايخنا في مطالب أولي النهى فجاء ذكر (إذا تجشأ وهو في الصلاة، فليرفع رأسه إلى السماء حتى يذهب الريح، وإذا لم يرفع آذى من حوله من ريحه)، قال معالي

الشيخ محمد رحمه الله، فقلت على رفع الرأس في هذا الموضع على طريقة مرعي رحمه الله في الغاية: ويتجه إذا كان قصيراً فلا يرفع.

أخبرنا رحمه الله أنه ذهب مع صاحبه عبدالله البقيشي إلى عنيزة مشياً على الأقدام عام ١٣٦٤ لما سمعا بوجود نسخة مخطوطة من كتاب الإنصاف في مكتبة جامع عنيزة، وأن الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله يبيح للطلاب القراءة فيه على ألا يخرج من المسجد، فذهبا إلى عنيزة، وحضرا بعض دروس الشيخ ونظرا في المخطوط المقصود.

عَزَمَاتُهُمْ بَيْنَ السُّيُوفِ صوَارِمٌ ... وَقُلُوبهم تَحْتَ الحَدِيْدِ حَدِيْدُ

وسمعته رحمه الله يقول: إنه اشترى بعض المخطوطات بريال ونصف في المدينة النبوية أول ما قدم إليها.

وحدثني أنه في سوق الحراج ببريدة رأى عبدالمحسن المقبل يحرِّج على مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود بستة قروش، وبعد مدة رآه يحرِّج

على القاموس أربع مجلدات، قال الشيخ محمد: وقد زاودتُ فيه لأشتريه.

وقال: كلفني الشيخ ابن حميد رحمه الله بشراء كتب وأعطاني مبلغاً من المال، فذهبت إلى مكة واشتريت حمل سيارة! وأكثر الكتب اشتريتها من عبدالفتاح فدا.

وذكر الشيخ أن شيخه عبدالله ابن حميد أخبره أن مكتبة الشيخ صالح القاضي رحمه الله ستباع ببيريدة بعد وفاة ابنه عثمان عام ١٣٦٦هـ إذ كان الناظر والمشرف عليها، فقال الشيخ محمد العبودي للشيخ عبدالله: ما الحد الأعلى من الريالات؟ فقال: لا حد لذلك الأمر راجع لك، فاشتريت لشيخنا ما شاء الله، ومن بينها مخطوط نادر قد كُتب في القرن الرابع الهجري ليس فيه نقط! هو كتاب "مشكل الآثار" للطحاوي.

يقول الشيخ محمد: واشتريتُ لنفسي من النوادر من هذه الكتب كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي، وقد كتب في عام ٧٥٠هـ بخط جميل وفيه الرسوم الهندسية مرسومة بالخط الأحمر.

شجاعٌ إذا لاقى، ورامٍ إذا رمى ... وهادٍ إذا ما أظلم الليل مصدع

كان رحمه الله ناصحاً يجود بالرأي ويكشف جوانب النفع فيه، سألني هل لي بيت في الرياض؟ فقلت: لا أملك بيتاً بعد، وإنما أسكن في بيت مسجد، فقال رحمه الله: هذا كما في الحديث"مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجُعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها"(الحديث ضعيف) فضحكنا، ثم قال: احمد ربك، تصلي بالناس محتسباً وتسكن في بيت، فقلت: الحمدلله، ثم قال: لكن لا ينبغي أن يمنعنَّك عن البحث عن بيتٍ ولو بعيداً؛ لأن البعيد يصير قريباً، هالك الوقت كنتُ أبحث عن مسكنٍ آخر غير الذي كنا فيه في حي الفوارة لما تخرج الابنان وتزوج أحدهما، فصار كل منهما يحتاج بيتاً، فأتيتُ إلى هذا المكان الذي نحن فيه "ما

تجيها يا الله كان الطيور"، ولا حوله شيء، واشتريتُ من رفيق لنا يقال له "السحيباني" المتر بـ ١٩٠ ريالاً، وكنتُ ناوياً أصغر الأرض المشتراة فقال: لا، طع شوري وكبر ولن تندم، وفعلاً أخذت برأيه جزاه الله خيراً، والآن الذي تراه، صرنا في وسط الرياض، فدوِّر مسكناً ولو كان بعيداً ولو صغيراً، فالذي ليس له منزل، حياته كسيفة يكد للناس، وأحياناً ما يكفي يقال له: اطلع! هذه المشكلة.

ثم قال الشيخ: أذكر أن جاراً لنا في هذا الحي لما أكمل بناء بيته أقام مأدبة وعزم صاحب السمو الملكي الأمير سلمان أمير للرياض حينها "خادم الحرمين الشريفين" حفظه الله وبارك في عمره وعمله، فقال الأمير مخاطباً صاحب المنزل: إن بيتك هذا قبل مدة نصيد فيه الحباري، ثم يستطرد الشيخ محمد رحمه الله في شرح "الحباري" وأنه جمع حبارى، وأنها لا تكون إلا في أرض قفر، يقول الأمير تتمة لحديثه: ذكرها لي أحدهم أنه رآها هنا، فطلعت من الرياض لأصيدهن وإذا هي ثمان، وكان الوقت بعد العصر "مسيان"،

فصيدتُ ثلاثاً، والباقي جلن، ولما أصبح الصبح ذكرتهن للملك سعود رحمه الله وذاك الوقت كان ولياً للعهد فطلع مع بعض رجاله أو أرسل بعضهم فصادوا الباقي... المقصود أن هذا بَرٌّ وبعيد، فمن يصدق أن يكون فيه هذا البنيان، فالمراد تحصيل بيت ولو كان بعيداً.

طيبني بدهن عود في أول الجلسة وقال: هذا دهن عود جاءني من الهند خاص، وهو هدية لك.

وفي آخر الجلسة أهداني بعض مؤلفاته، فما أطيب مجلسه، وأزكى نفسه، وأكرم لفظه ويده رفع الله منزلته ودرجته.

قالوا قضى حسن المناقب فارثه ... فأجبتهم ومدامعي تتحدر

لا أستطيع رثاء من لمصابه ... أضحى لساني في فمي يتعثر

ولما شيعني إلى الباب قال: يا شيخ محمد عندي جلسة مفتوحة كل مغرب اثنين فلعلك تشرفني فيها يأتي فيها بعض الفضلاء، فقلت: الشرف لي وبإذن سأكون في طليعة الحاضرين.

فكنتُ آتي إليها ما لم أُشغل عنها مستمتعاً بما يدور فيها، وغالباً أكون في خامس مقعد عن يمينه رحمه الله، وقد كتبتُ عن هذه الجلسة مقالاً نشر في صحيفة الجزيرة بعنوان(عن مجلس الشيخ الموسوعي محمد العبودي أحدثكم) نشر في ١٠/ ٦/ ١٤٣٧هـ.

وأذكر مرة دخلتُ عليه مجلسه وكنتُ دائماً أترك ثلاثة أماكن بجواره ليجلس فيها من يراه الشيخ أو من يستحق التقديم؛ إذ مجلسه رحمه الله مقصود، فقال لي: اجلس هنا وأشار بالمكان الذي عن يمينه مباشرة، فقلت: هناك يا شيخنا أنسب فأخشى أن يأتي أحد فأُقام لأجله! فقال: لك ألا تقام من مكانك، فجلستُ حيث أمر، فكان كلما جاء رجل يريد الشيخ أن يجلسه قريباً منه، قال: خلك على يمين الدكتور محمد!

سمعته رحمه الله يقول: الكتب رخيصة في الوطن العربي، وذكر قصة ديوان أبي حيان المفسر اشتراه رجلٌ -سماه الشيخ محمد- يقول:

وجده يباع مخطوطاً في مكة بخمسة ريالات، وباعه على جامعة الملك سعود لما كان مديرها الدكتور الخويطر بأضعاف مضاعفة.

وسمعته يقول: إنه دخل مكتبة في الحرم المكي فصار ينسخ ما شاء الله من المخطوطات ويمكث بالساعات والأيام يكتب وينسخ وينقل الفوائد من كتب نوادر، وهذه المكتبة كانت داخل الحرم في القبو، وقد ذهبت احتراقاً بسبب فتنة جهيمان التي وقعت في الحرم.

ذكر رحمه الله أن أول رحلة خارجية كانت له لدولة البحرين في حدود عام ١٣٧٠هـ أو ١٣٧١ وهي أول مرة ركب فيها طيارة.

وذكر عن علاقته بالشيخ فهد العبيد العبدالمحسن رحمه الله، وأنه كان معتنياً بالمخطوطات والكتب.

وذكر الشيخ محمد الحركان رحمه الله فقال: رجل بكل ما تحمله من هذه الكلمة من معنى، ولا أعلم أنه ذهب عنه ريال في غير حقه.

وذكر أنه في عام ١٣٦٧هـ كان قدوم الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله إلى بريدة، وأن شيخنا صالح السكيتي قال لي وأنا أقرأ عليه: نبي نروح نسلم عليه على الشيخ ابن باز؛ لأنه لتوه وصل بريدة.

فقاما للسلام على سماحته رحمه الله وتركا قراءتهما، فتأمل توقير أهل العلم بعضهم لبعض.

وذكر رحمه الله أن أول ما كتب للنشر كان مقالاً بمجلة المنهل عام ١٣٧٣هـ عن موضوع "الكتابة" لا عن "السفر".

وسمعته غير مرة يقول: أنا أوصي بكتابة كل شيء، فالكتابة لا تضر أبداً، وقد يأتي من يستفيد منها.

أقول: هذه وصية نافعة من الشيخ رحمه الله لكن من يقدر على ذلك! فلطالما فات شيء كثير جداً بسبب عدم الكتابة، وما زال التفريط حتى هذه اللحظة، وكما قيل: قلم رصاص أفضل من ذاكرة شاب.

بل كان رحمه الله يقول: اكتب يومياتك يوماً كل مساء اكتب ما لاقيته لو رأس قلم، وإن كان ليس له قيمة؛ لأنه سيجرك إلى ما فيه قيمة.

كان يقول رحمه الله: نفعني بعد توفيق الله وإعانته ثلاثة أمور في حفظ المواقع والأسماء في البلدان التي زرتها:

١- النظر والتأمل وعدم الإعراض بل التركيز.

٢- التقييد.

٣- وضعها في كتاب للتأليف ليس مجرد تقييد.

قَلِيْلُ التَّشَكِّي للمُصِيْبَاتِ ذَاكِرٌ ... مِنَ اليَوْمِ أعْقَابَ الأحَادِيْثِ فِي غَدِ

قال رحمه الله: مكثت في المدينة النبوية ثلاثة عشر عاماً، وكان يحفظ من أخبارها خاصة ما يتعلق بالجامعة الإسلامية فربما حفظ كل شيء يتعلق ببداياتها والسنوات الأولى فيها، وقد كانت له يد في التعاقد مع أهل العلم، فذهب إلى الشام والأردن وبيروت وغيرها لجلب المتميز

للجامعة الإسلامية فأتى بالشيخ الألباني للجامعة وغيره من أهل العلم كما حدثني بذلك، قال: زرت دمشق عام ١٣٧٥هـ، وزرت الألباني في غرفته في المكتبة الظاهرية، وذكر لي أنه في عام ١٣٨٣هـ سافر للحج بسيارة الشيخ الألباني وبرفقتهما الشيخين عبدالمحسن العباد وعمر فلاتة وكان سيارة صغيرة سوداء، فقلت: هل كان الألباني يسرع في القيادة على ما ذُكِر؟ فابتسم رحمه الله وهزَّ رأسه نعم، وحدثني بها كذلك الشيخ عبدالمحسن العباد حفظه الله.

وذكر الشيخ محمد أن الأديب علي الطنطاوي رحمه الله في اجتماع مجلس الجامعة قال: عندنا بهجة العراق وبهجة الشام؛ لما اجتمع بهجة البيطار وبهجة الأثري.

قال الشيخ محمد رحمه الله: إن محمد بهجة الأثري رحمه الله قال له: تعبتُ على تحقيق كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" للأصبهاني أكثر من عمل المؤلف عشرين مرة!

وذكر رحمه الله زيارة الملك فيصل رحمه الله للجامعة الإسلامية، وأنه دخل درس الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله وجلس مدة يستمع للدرس مع الطلبة ثم خرج فسمعته يقول: لولا شغل عندي ما طابت نفسي بترك هذا الدرس.

قال الشيخ محمد: ذهبتُ مرة مع سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله لزيارة الملك فيصل رحمه الله لما أردتُ الذهاب إلى إفريقيا، ففي المجلس طلبتُ وصية من الملك في سفري هذا، فقال: هي واحدة! راقب الله بأعمالك وأفعالك تنجح.

وما أعظمها من وصية! فرحم الله الملك فيصل، ورحم الله الشيخين المحمدين.

قَلِيْلُ اخْتِلاجِ الرَّأي فِي الجِدِّ وَالهَوَى ... جَمِيْعُ الفُؤَادِ عِنْدَ وَقْعِ العَظَايِمِ

وعلى ذكر الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، ذكر الشيخ محمد العبودي رحمه الله أنه كلَّم سماحته في موضوع فأجابه سماحته بقوله: (النظام يا محمد وضع ليطبق).

وحدثنا الشيخ محمد رحمه الله في مجلسه أنه أَدخل طالباً بلغ عمره سبع عشرة سنة للمعهد العلمي ببريدة، وكان كفيفاً، ولم تكن أوراقه مكتملة، يقول الشيخ محمد: فلم ينس الطالب ذلك الموقف، فكان يدعو لي دائماً، إذ كانت تمر عليه الليالي هو ووالدته لا يجدون ما يأكلونه، وبعد مكافأة المعهد عيَّنا خيراً.

وذكر أنه لما كان مديراً للمعهد العلمي أحد المدرسين من دولة عربية قال لطالب: أين الكراس؟ فقال: في البيت، قال المدرس: اذهب وتعال به، فخرج الطالب بعد الاستئذان من المدير فأذن له قائلاً: طيِّب ما دام الأستاذ يريده، فذهب الطالب وأتى بكراث!!

وذكر أحد الطلاب المكفوفين في المعهد آنذاك وهو الشيخ صالح الغيث رحمه الله وقت إدارة الشيخ محمد رحمه الله فيقول: لا أنس

حين كنا ننتظر النتيجة، فخرج علينا مدير المعهد الشيخ محمد العبودي، فوقف بجانبي وقال: المجد للمكفوفين، فعرفت أنني الأول.

ومما ذكره الشيخ محمد رحمه الله عرضاً أنه كان يسلِّف الطلاب من ماله ويخصم من مكافأتهم.

تخَالف النَّاس إِلَّا فِي محبته ... كَأَنَّمَا بَينهم فِي حبه رحم

وحدثني سماحة شيخنا صالح الفوزان حفظه الله وبارك في عمره أن الشيخ علي الحصين رحمه الله قد درَّسه في مرحلة الابتدائية ثم بعد التخرج الشيخ صالح منها تم تعيينه مدرساً في المدرسة الابتدائية بالشماسية، فقابلني أستاذي علي ببريدة إذ كان لي حاجة هناك، فأخذ بيدي فذهب بي إلى المعهد العلمي وسلمني إلى مدير المعهد الشيخ محمد العبودي فأخذني الشيخ محمد بيدي وأدخلني قاعة الدراسة، وكان المدرِّس في الصف الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي رحمهم الله جميعاً، وكان المقرر في التفسير، وكان رحمه الله يشرح سورة التكوير، فبقيتُ في الدرس، وعزمتُ على إكمال الدراسة مع أني

حينها قد رُفِّعْتُ في الوظيفة، وقد أكمل أوراقي الشيخ محمد جزاه والشيخ الحصين خير الجزاء.

صَعب الكريهة لا يرام جنابه ... ماضي الْعَزِيمَة كالحسام المقصل

فانظر إلى توفيق الله لهم وسماحة نفوسهم من استجابة الشيخ صالح وطواعيته للشيخين، وانظر إلى نصح الشيخ علي الحصين والاستجابة المباشرة من صديقه مدير المعهد الشيخ محمد في القبول وإكمال الأوراق فغفر الله لهم جميعاً، ثم من التوفيق أن يكون أول درس للشيخ صالح حفظه الله بين يدي الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله الذي فاق غيره في حسن تدريسه، وجودة عرضه للمعلومة، وربما كان هذا من أسباب عزيمة الشيخ صالح في استكمال دراسته وطلبه للعلم.

والشيخ علي الحصين كان من تلاميذ الشيخ ابن حميد توفي ولم يتجاوز الثالثة الثلاثين سنة، وكان الشيخ محمد العبودي يعده أصدق صديق له على الإطلاق، كما ذكر ذلك في معجم أسر بريدة رحمهم الله جميعاً.

جاء ذكر الأمثال في مجلسه رحمه الله فقال: عندي كتاب الأمثال البغدادية التي تجري بين العامة للقاضي أبي الحسن الطالقاني مخطوط، ثم قال: كان اهتمامي بالأمثال من زمن قديم، ولي مجلدات فيه، وهو من أوائل كتبي المنشورة.

وأول مثل سمعه من الملك عبدالعزيز رحمه الله: العافية في أطراف الجوع.

وأول مثل سمعته من الملك سعود رحمه الله: ما للصلايب إلا أهلها.

كان رحمه الله مضرب مثل في الاهتمام باللغة العربية حتى سمعته يقول: لقد كلمتُ بعض المسؤولين الكبار ممن يستجاب لأمرهم أن يكون عندنا مجمع للغة العربية فنحن أصل اللغة؛ إذ القبائل العربية كانت هذه البلاد مسارحها ومساكنها.

وكانت اللغة العربية من اهتماماته الكبيرة بل عند أدنى مناسبة ينبه على اللحن أو اللغط اللغوي ويرشد إلى فصيحه، فمرة مرَّ ذكر لفظ "جو" فقال: جمعها "جِواء"، لا كما يلحن بعضهم فيقول: أجواء، ومنه "عيون الجواء" في منطقة القصيم.

وكان يلفت النظر إلى اللفظ فمثلاً جاء الحديث على ركوب السيارات والطائرات، فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما في صحيح مسلم: « وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا » فهذه معجزة فإن التي يترك منها ما كان للركوب فإنه صلى الله عليه وسلم لم يقل تترك الإبل. ثم قال الشيخ: عندي معجم عن الإبل في مجلدات.

مع أن المشهور في معنى الحديث في أنه لَا يُسْعَى عَلَيْهَا، أي لا تطلب الزكاة من صاحب الإبل في ذلك الوقت لكثرة المال ورغبة الناس عن السعي في جلب زكاتها، وما ذكره معاليه رحمه الله محل تأمل وبحث، ولم يتيسر لي اقتناء كتابه "معجم الإبل" فلربما بسط الشيخ القول في ذلك.

ذكر أن سليمان الرواف رحمه الله كتب نبذة تاريخية مفيدة خاصة عن خروج آل أبا الخيل من سجن ابن رشيد في حائل يقول الشيخ:

فيها مواقف عجيبة! سمعتُ أكثرها من مشايخي الإخباريين من أهل بريدة.

سألته رحمه الله عن رأيه في المكتبات الخاصة هل توقف بعد الوفاة أو تهدى للجامعات أو ماذا؟ فكان من جوابه: سلاحنا ضد الجهل هو المكتبة، لكن إذا كان يريد استمرارها وبقاءها فليوصي بها، ويحاول أنه ينفق شيئاً عليها مثل الأولين، فقد ذكر ياقوت الحموي في مرو خزانة كتب فلم يكن يسمونها مكتبة وهذا صحيح، لأن المكتبة هي مكان بيع الكتب أما أنها ليست للبيع فهي خزانة تخزن فيها الكتب، يقول ياقوت: إن فيها خزانة السيدة فلانة، وكان فيها خدمات حتى كان فيها من يغسل ثياب الذين يراجعون الخزانة، وأكثر ما استفدته في كتابي هذا يعني "معجم البلدان" هو من مكاتب مرو، أربع خزان كتب مخدومة عليها أوقاف...أما أن تهدى إلى الجامعات فعلى حسب المكتبة قد تكون زيادة نسخة في المكتبة، أما إذا كان يوجد في المكتبة الخاصة نوادر لا توجد في غيرها كما في مكتبتي ففيها

بعض الكتب لا أظنها توجد في غيرها لذا عزمت أن أجعل الكتب أن تصير وحدها وسأجعل عمارة صغيرة ببريدة وقفاً على المكتبة وأضع في مبنى المكتبة "شقة" تكون لقيِّم المكتبة؛ لأني أنا اسم وظيفتي لما عينني الشيخ ابن حميد رحمه الله قيِّم مكتبة جامع بريدة، فنحيي هذا المصطلح القديم، وتصير المكتبة جاهزة، لكن بقي شيء آخر، هل هناك رواد؟ إذا كان فيها كتب ليست في المكتبات الأخرى فسيكون لها رواد، أما إذا لم يكن فيها فهذه مشكلة!

وقال: الذهاب لطلب العلم في الهند؛ لأجل هناك مدراس وقفية، فيأتي الطالب ويجد مكاناً وطعاماً وعلم حديث، فهذا يميز الهند تلك الفترة.

جاء ذكر علم الفرائض فقال: أفرض العلماء هم من يقسمون المناسخات، هذا هو الفرضي.

كان عجيباً في حفظ الشعر العربي والعامي تأتي الأبيات على لسانه كأنه هو ناظمها، ولا يتكلف استحضارها، وأذكر مرة ذكر أحد

الحاضرين فائدة فعلق الشيخ قائلاً الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله له أبيات في نحو ذلك ثم سرد بيتين أو ثلاثة!

ومن كلمات الشيخ رحمه الله: أن الشاعر يضيق بما لا يضيق به غيره.

وجاء مرة ذكر الشاعر محمد العوني فقال: إن والده عبدالله قال له: يا ولدي الشعر ما ينفعك خذ مهنة أبوك(كان أبوه أستاد بناء) فإني أبني البيت بعشرين يوماً! فأجابه ابنه: لكن أنا يا أبوي أبني عشرين بيتاً بيوم!

كان حديثه عن النخلة ونتاجها حديثاً شيقاً كعادته إذا تحدث عن شيء، وقد قال كلمة عظيمة فيها، إذ قال: ما فيه شجرة يعيش عليها الإنسان عامه كله إلا النخلة، ثم أعقب على ذلك بقول: خذها ممن دار العالم كله!

وقال: إن عيسى عليه السلام ولد في "أريحا" مأخوذة من "ريحا" وقد رأيتها قديماً مليئة بالنخل.

ثم تكلم الشيخ عن اختلاف ثمرة النخلة وتنوعه ثم ابتسم وقال: أذكر رجلاً أحمق مرَّ بشجرة الجح "البطيخ" ثم مرَّ بنخلة، فقال: لو كان ثمرة النخلة هي للجح، وثمرة الحج هي للنخلة مراعاة للحجم إذ البطيخ شجرتها صغيرة، قال الشيخ: فسقطت على رأس الرجل بسرة من عذق النخلة فدارت عينه، فقال: الله حكيم عليم لو كانت البطيخة هي التي سقطت على رأسي لكنت ميتاً.

ذكر رحمه الله أنه أصيب بالحصباء وعمره تسع سنين أو عشر سنين تقريبا مع أخيه سليمان وهو أصغر من الشيخ بأربع سنين تقريباً، وعالجهم صديق والدهم من عائلة "الشبرمي".

لما ذكر وقائع من تأريخ نجد، المرَّة في واقعها والمرة على سامعها قال: تلك أمة قد خلت، نذكرها للاعتبار لئلا تتكرر، فنحمد الله على ما نحن فيه من نعمة.

وسمعته يقول: حدثني أبي وحدثتني أمي رحمهما الله أن الناس سنة الجوع ١٣٢٧هـ يطيحون بالسوق موتى.

رحمهم الله ورحم والديه اللذين خرج منهما هذا النابغة، وتربى في كنفهما نادر من نوادر الرجال، وجزى الله الشيخ محمداً عنا وعن المسلمين خيراً.

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْك واحدٍ ... ولكنّه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

وإن ما خلَّفه من تراث لهو تعزية لنا، فدونكم إرثه وتراثه قد ملئ عبراً وأحداثاً وقصصاً، تجد فيه ما تريده وزيادة، فكم حفظ الله به من مخطوطة وورقة، واعتنى بأمور كثيرة غفل عنها أكثر أهل جيله إن لم يكن كلهم، فلله دره، ورحمه الله، ورفع نُزُله ومنزلته.

وعزائي لأولاده رجالاً وإناثاً وجزاهم الله خيراً وأخص منهم ابنه الكريم ناصر الذي كان ملازماً مجلس والده خدمة وضيافة مغرب الاثنين، وبارك الله فيهم جميعاً، وعوضنا وإياهم خيراً عن فقد معاليه.

كما أعزي الدكتور الكريم أبا عبدالله محمد المشوح الذي خدم الشيخ وتراثه حتى التصق اسمهما جميعاً، فكم رأيتُ الشيخ يأنس به، ويفرح بحديثه.

والعزاء لنا جميعاً في رجل خدم دينه، وبلده، والعلماء، وولاة أمره، وطلاب العلم، والمسلمين، وطاف ديارهم وديار غيرهم دعوة وإغاثة، فأسأل الله أن يرحمه، وأن يعوضنا خيراً.

فقرَّت عيونٌ كنتَ شمل جفونها ... وجادت بحزنٍ بالدّماء عيون

وكتب

محمد بن فهد بن عبدالعزيز الفريح

في يوم الأربعاء الموافق ١٤٤٣/١٢/٢١هـ